عبد الله نديم

١٨٤٥- ١٨٩٦

ظل الشعر في مصر بعد وفاة رفاعة رافع الطهطاوي خلوا من المعاني الوطنية، إلى أن تجددت في شعر عبد الله نديم.

هو خطي الثورة العرابية، وهو أيضاً شاعرها، انطبعت في خطبه وقصائده روح الوطنية المتدفقة، وروح الثورة.

ولد سنة ١٨٤٥ بالإسكندرية، وبدت عليه منذ صباه مخايل الذكاء اللامع، وظهرت مواهبه في الترسل في الكتابة والشعر والزجل، والقدرة الخطابية، مع خفة في الروح، وميل إلى الفكاهة، وجرأة وإقدام، واستخفاف بأحداث الزمان.

ولما ظهرت الثورة العرابية أوائل ١٨٨١، انضم إليها بطبعه، إذ كانت نفسه تتأجج وطنية وتتطلع إلى الحرية والمجد، وتجلت مواهبه الخطابية، فصار خطيب الثورة العرابية.

ومما يذكر عنه في صدد الحديث عن شعره الوطني أنه لما سافر الآلاي السوداني الذي كان يقوده الأميرالاي عبد العال حلمي أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط، في أوائل أكتوبر سنة ١٨٨١. كان سفره يوماً مشهوداً، فاحتشدت الجموع في محطة العاصمة لتحية الآلاي حين سفره، وكان من بين المودعين عرابي والبارودي وعبد الله نديم، فوقف النديم وسط هذا الجمع الحاشد وألقى خطبة حماسية فياضة، بدأها بقوله مخاطباً رجال الجيش:

"حماة البلاد وفرسانها!

"من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات.

إلى أن قال: وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إلـيكم يـرد الأمـر وهـو عظـيم ... فـإني بكـم طـول الزمـان رحـيم
إذا لـم تكونـوا للخطـوب وللـردى ... فمـن أيـن يـأتي للـديار نعـيم؟
وإن الفتـى إن لـم ينـازل زمانـه ... تـأخر عنـه صـاحب وحمـيم
فـردوا عنـان الخيـل نحـو مخـيم ... تقلبـه بـين البيـوت نسـيم
وشـدوا لـه الأطـراف مـن كـل وجهـة ... فمشـدود أطـراف الجهـات قـويم
إذا لـم تكـن سـيفاً فكـن أرض وطـأة ... فلـيس لمغلـول اليـدين حـريم

وختم خطبته بقوله: وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال (ما شهيد الأوطان!)، فنادى الجميع (رضينا بالموت في حفظ الأوطان!).

ولما شبت الحرب العرابية لازم النديم عرابي كفر الدوار ثم في التل الكبير، وكانت مجلته (الطائف)، تصدر في معسكر الجيش المصري.

وبعد أن وقعت الهزيمة، ظل مخلصاً للثورة في محنتها، فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة، وكان ممن أمرت الحكومة باعتقالهم، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه، وظل مختفياً عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة أعوام، وأعيا الحكومة أمره، وجعلت ألف جنيه لمن يرشد عنه، ولكنها لم تهتد إليه.

وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثناء اختفائه في قصيدة تفيض وطنية وإيماناً وفخراً وشجاعة، وهي من غرر قصائده. قال:

أتحسـبنا إذا قلنـا بلينـا ... بلينـا أو يـروم القلـب لينـا
نعـم للمجـد نقـتحم الـدواهي ... فيحسـب خامـل أنـا دهينـا
تناوشـنا فتقرنـا خطـوب ... تـرى ليـث العـرين لهـا قرينـا
سـواء حرجهـا والسـلم إنـا ... أنـاس قبـل هـدنتها هـدينا

إلى أن قال:

إذا مـا الـدهر صـافانا مرضـنا ... فـإن عـدنا إلـى خطـب شـفينا
لنـا جلـد علـى جلـد يقينـا ... فـإن زاد الـبلا زدنـا يقينـاً
ألفنـا كـل مكـروه تفـدي ... لـه فرسـانه بالراجلينـا
فأعيـا الخطـب مـا يلقـاه منـا ... ولكنـا صـحاح مـا عيينـا

لســـينا يـــا خطـــوب فقـــد عرفنـــا ... بأنـــا الصـــلب صـــلنا أو صـــلينا
وقـــرى فـــوق عاتقنـــا وقـــولي: ... نزلـــت اليـــوم أعلـــى طـــور ســـينا
علينـــا للعـــلا ديـــن وضـــعنا ... عليـــه الـــروح لا الـــدنيا رهينـــا
فهـــل يمســـي رهـــين فـــي ســـرور ... وهـــل تلقـــي بـــلا كـــدر مـــدينا؟
إذا مـــا المجـــد نادانـــا أجبنـــا ... فيظهـــر حـــين ينظرنـــا حنينـــا
يغنينـــا فيلهينـــا التغنـــي ... عـــن البـــاكي وينســـينا الحزينـــا
ولســـنا الســـاخطين إذا رزئنـــا ... نعـــم يلقـــي القضـــا قلبـــا رزينـــا
فإنـــا فـــي عـــداد النـــاس قـــوم ... بمـــا يرضـــي الإلـــه لنـــا رضـــينا
إذا طـــاش الزمـــان بنـــا حلمنـــا ... ولكنـــا نهينـــا أن نهينـــا

إلى أن قال:

ســـلوا عنـــا (منابرنـــا) فإنـــا ... تركنـــا فـــي منصـــتها فطينـــا
لحكمتنـــا تقـــول إذا هـــذرتم ... إلا هبـــي بصـــيحتك فاصـــبحينا
ســـرى فينـــا مـــن الآبـــاء ســـر ... يســـوق البـــر نحـــو المعوزينـــا
فـــإن عشـــنا منحنـــا ســـائيلنا ... وإن متنـــا نفحنـــا الزائرينـــا

وقال يصف إحاطة الجند بالمنزل الذي كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من شرهم:

أأنســـى يـــوم مصـــر والبلايـــا ... تطـــاردني ولا ألقـــى معينـــا
فكانـــت [1] الغـــوث فـــي يـــوم كريـــه ... أخـــاف الشـــهم والحبـــر الســـمينا
مـــدحنا فيـــه فـــي إشـــراق شـــمس ... فلمـــا جـــاء مغربـــة هجينـــا!
وهـــل أنســـى هجـــوم الجنـــد عمـــراً ... بـــلا علـــم وقـــد كنـــا فجينـــا
أحـــاطوا بـــي وســـدوا كـــل بـــاب ... وصـــرنا بـــين أيـــدي الباحثينـــا
وكـــان الســـطح مملـــوءاً بجنـــد ... وخلـــف البيـــت كـــم وضـــعوا كمينـــا
فأدركـــت الوحيـــد وكـــان صـــيداً ... قريبـــاً مـــن فخـــاخ الطالبينـــا
وأرشـــدت النـــديم إلـــى مكـــان ... رآه بعـــد حيرتـــه مكينـــا
وأعمـــى الله عنـــا كـــل عـــين ... وكنـــا للعســـاكر ناظرينـــا
وصـــرنا فـــوق ســـطح فيـــه علـــو ... يحطـــم هاويـــاً منـــه متينـــا

---

(١) الخطاب هنا وفي الأبيات التالية موجهة إلى الرسول ﷺ، والنديم شريف النسب.

obeikandi.com

فلـــم أرهـــب وثـــوبي مـــن طمـــار ... ولـــــم أنظـــــر شـــــمالاً أو يمينـــــا
ويـــوم الغـــيظ كانـــت لنـــا مجيـــرا ... بســـطوته مـــن البلـــوى حمينـــا
فقـــد كنـــا بـــلا ســـتر يرانـــا ... أمـــام العـــين كـــل القاصـــدينا
وكـــم ســـرنا بـــلا خـــوف جهـــاراً ... ركبنـــا الخيـــل أو جئنـــا الســـفينا
وإنـــي الآن فـــي خطـــب عظـــيم ... أرى فـــــي طيـــــه داء دفينـــــا
أتانـــا مخبـــر عـــن قـــوم ســـوء ... أرادوا وصـــــــفنا للحاكمينـــــا
وخـــاف الضـــر أحبـــابي جميعـــاً ... وقـــالوا لـــي بالوشـــاية قـــد رمينـــا
فعجـــل بالرحيـــل بـــلا تـــوان ... ولا تخبـــــر صـــــديقاً أو خـــــدينا
فـــأدرك يـــا أبـــي نجـــلاً دهـــاه ... مـــن الأهـــوال مـــا يـــوهي البـــدينا
فمـــا خفـــت المنـــون ولا الأعـــادي ... نعـــم خفـــت انشـــراح الشـــامتينا

***

فســـرت الليـــل يصـــحبني ثبـــات ... لخـــل نحـــو منزلـــه دعينـــا
ورافقنـــي خليـــل كـــان قـــبلا ... يـــوافي حـــين كنـــا ظاهرينـــا
وأدركنـــا القطـــار بغيـــر فـــوف ... وكنـــا بالثيـــاب منكرينـــا
وألقـــى الله ســـتر الحفـــظ فضـــلا ... فلـــم ترنـــا عيـــون المبلســـينا
وكـــان الخـــل منتظـــراً قـــدومي ... بخيـــل أوصـــلتنا ســـالمينا
ونجـــي الله بعـــد اليـــأس عبـــداً ... يـــرى الـــرحمن خيـــر المنقـــذينا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى في الروح والأسلوب من شعره في أبان الثورة. وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تنل منه، بل زادته قوة وحيوية، وصلابة وبلاغة، وأن الشدائد صقلت موهبه كما تصقل المعادن وتجلي جواهرها في لهب النار، فاحتفظ النديم في سنى المحنة بما حباه الله من إيمان صادق، وعزم ثابت، وصمود على الأيام، وكذلك الشدائد والمحن، يختلف أثرها في نفوس الناس، فبينما تبعث اليأس والجزع في النفوس الضعيفة، نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة ثباتاً وصبراً، وشجاعة وإيمانا، ومن هنا جاء شعر النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه في أوج انتصارها.

وفي الحق أن النديم هو الزعيم الوحيد بين الزعماء العرابيين الذي استمر في جهاده ضد الإنجليز ونضاله عن مصر في عهد الاحتلال، وتلك لعمري ميزة كبرى جديرة بأن تحبط أسمه بهالة من المجد والخلود، وقد اهتدت الحكومة إلى مكانة سنة ١٨٩١ وقررت نفيه إلى خارج

القطر، وفي أوائل عهد الخديو عباس الثاني عفى عنه ورخص له بالعودة إلى مصر، فعاد إليها، وأنشأ مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ فتجلت فيها روحه الوطنية التي لم تضعفا الهزيمة ولم تنل منها الشدائد، مما أحفظ عليه الإنجليز وصنائعهم، فتدخل اللورد كرومر، وأمر بإبعاد عن مصر ثانية، فاضطر إلى تعطيل صحيفته سنة ١٨٩٣، وودع قراءه وداعاً مؤثراً في آخر عدد صدر منها (في ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣) قال:

"ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب، والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظمة والجلال، وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً في أعين الواقفين عند الظواهر، وعلى هذا فإني أودع إخوان قائلاً:

أودعكم والله يعلم أنني ... أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلي كان الرحيل وإنما ... دواع تبدت فالسلام عليكم!

وانتهى به المطاف في منفاه إلى الآستانة حيث توفى سنة ١٨٩٦، وشيعت جنازته في احتفال مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء، ويتقدمهم السيد جمال الدين الأفغاني، ودفن هناك.

بالأمس كان غريباً في ديارهم ... واليوم صار غريب اللحد والكفن!

* * *